

حزيران بلا قتال

طلال عوكل*

كيف سقطت غزة بلا قتال

السؤال عن التفصيلات اليومية لمجريات الأوضاع في قطاع غزة، خلال حرب ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، يعتريه كثير من النواقص، وربما عدم الدقة. والأسباب تعود إلى صعوبة الوصول إلى المعلومة بسبب محدودية الوسائل، إذ كان المذيع القديم الأشبه بالصندوق هو الوسيلة المتوفرة لدى القليل من ميسوري الحال، فضلاً عن جريدة "فلسطين" التي تفتقر إلى وسائل نقل الخبر السريع، وعن محدودية وسائل النقل العامة وارتفاع تكلفة استخدامها قياساً بمستوى المعيشة، وأيضاً غياب الحاجة إلى الانتقال من مكان إلى آخر في قطاع غزة المعروف بمحدودية مساحته. والناس في قطاع غزة لا يثقون بالأخبار التي كان ينقلها راديو إسرائيل، وثقتهم تكاد تكون عمياء بمذيع إذاعة "صوت العرب" الشهير أحمد سعيد الذي كان صوته الجهوري يقدم صورة مغايرة لما تقدمه الإذاعة الإسرائيلية، ولما كان عليه الواقع فيما يتعلق بمجريات الحرب.

ولا يزال سكان القطاع ممن عاصروا تلك الفترة يتذكرون جملة أحمد سعيد التي تنضح بالثقة حين كان يقول: "سنلقيهم في البحر، ونطعمهم لأسماكهم"، فسكان قطاع غزة، و٧٠٪ منهم من اللاجئين، لم تساورهم الشكوك ولا للحظة واحدة، في أن العرب سينتصرون على إسرائيل، وأن كلاً منهم سيعود إلى بيته ومزرعته.

الأوضاع العسكرية عشية الحرب

قطاع غزة المحدود المساحة (٤٠ كم طولاً، ومتوسط ٩ كم عرضاً)، كان خالياً تقريباً من الوجود العسكري المصري، إلا من بعض الضباط والمستشارين إلى جانب الحاكم العام. فالوجود العسكري لم يتجاوز بضعة آلاف من المتطوعين في قوة حرس حدود فلسطينية تشكلت في سنة ١٩٥٤، وبضع مئات من الشرطة، وكتيبة الفدائيين التي كان يُرمز إليها بـ "ك ٤٨"، والتي شكّلها مصطفى حافظ في سنة ١٩٥٥، ولا يتجاوز عدد أفرادها بضع مئات، وكانت تقوم بعمليات استخباراتية وقتالية محدودة داخل فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. أمّا تسليح كتيبة الفدائيين فكان عبارة عن رشاش بور سعيد (كارلو غوستاف)، بينما كان تسليح الجيش

* كاتب فلسطيني.

عبارة عن مجموعة أسلحة فردية خفيفة تتكون من بندقية إنجليزية، وستن إنجليزي، وبُرن إنجليزي. بعد إعلان تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وإعلان فتح باب التطوع، أُدخلت أسلحة جديدة من بنادق الكلاشينكوف، وبندقية تشيكية نصف آلية ورشاش غرينوف، وعدد قليل من رشاشات الدوشكا، وعدد آخر محدود من مدافع الهاون. أما الآليات فلم يكن يوجد منها على الأرجح أكثر من خمس دبابات من نوع "تي ٥٤"، وأذكر ذلك لأنني شاهدت واحدة منها، وهي تربض من دون حراك وسط بساتين البرتقال شرقي منطقة جباليا.

حالة السكان المعنوية

قبل اندلاع الحرب بأسابيع قليلة، بدا قطاع غزة كخلية النمل، إذ توافد مئات، بل آلاف الشباب، على مراكز التطوع، من دون أن يكون لدى السلطات إمكان للاستيعاب بسبب ضعف البنية العسكرية، وقلة السلاح، ومحدودية الإمكانيات التدريبية.

المراكز المكلفة استقبال المندفعين نحو التطوع، كانت تحمل مئات الشباب في شاحنات مكشوفة إلى بعض المواقع العسكرية المتقدمة لحفر الخنادق، مع أن هؤلاء لم يلاحظوا وجود تشكيلات تشير إلى أن هناك جيشاً، ومظاهر عسكرية تدل على إمكان التصدي لعدوان محتمل. الحماسة وحدها كانت تسيطر على الغزيين الذين كانوا مستعدين للتصدي بوسائل بدائية، كما حدث في بور سعيد والسويس خلال العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦.

غير أن ضعف المظاهر العسكرية القتالية لم يمل من ثقة الناس بنظام الرئيس الراحل عبد الناصر الذي حظي بشعبية طاغية في القطاع، في مقابل استصغار لشأن إسرائيل وقدراتها العسكرية؛ كان لسان حال الناس يقول: من أين لثلاثة مليون يهودي أن ينتصروا على أكثر من مئة مليون عربي؟ بدت هذه المعادلة كأنها بعض من زمن حروب السيف والرمح، وإقرار بتاريخ غابر يعتز به الفلسطينيون كما العرب بماضٍ تليد، لا تساورهم الشكوك في صحته.

يوميات الحرب

فجر الاثنين الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، بادرت إسرائيل إلى شن غارات جوية مكثفة على القواعد الجوية وقواعد الصواريخ، وأسلحة الدفاع الجوي المصرية، ودمرت عشرات الطائرات، ومرابض المدفعية والصواريخ. مرّ بعض الوقت قبل أن تستفيق القيادة المصرية من هول الضربة، وحجم الخسائر التي تكبدتها وجعلت الجيوش العربية في حالة دفاع عن النفس، لا تكاد تستطيع لملمة صفوفها، واتخاذ وضعية الاشتباك الفاعل.

على أن الناس في قطاع غزة لم يقفوا على هذه التفصيلات المرعبة، إذ ظل أحمد سعيد يصدق بلغة المنتصر والقادر على إلحاق هزيمة مرّة بإسرائيل. الأوضاع في قطاع غزة بدت هادئة إلى حد كبير، فالقوات الفلسطينية الموجودة لا تملك القدرة على رد عدوان استخدمت فيه إسرائيل الدبابات والمدفعية الثقيلة، وخلال الأيام الأولى شاهد الناس عدداً قليلاً من طائرات المستير الإسرائيلية، وهي في طريقها إلى القيام بهجمات قتالية في سيناء. وخلال الأيام التي استغرقتها الحرب، لم يظهر في سماء قطاع غزة سوى طائرة هليكوبتر واحدة، حلقت على علو منخفض في شمال قطاع غزة، الأمر الذي يعني أن إسرائيل تعرف تماماً أن الأسلحة الموجودة في حيازة جيش التحرير الفلسطيني لا

تستطيع التعامل حتى مع مروحية على مستوى منخفض جداً. أحد أفراد الشرطة الفلسطينية، وكنت إلى جانبه، رفع مسدسه، وأطلق بضع طلقات على المروحية، لكن طاقمها لم يردّ على إطلاق النار، وفضّل مواصلة طريقه من دون أن يشعر بوجود أي تهديد. ليس للصبية الذين تجمعوا حول الشرطي وأنا بينهم، أن يعرفوا بأن المسدس ليس أكثر من لعبة، لكن الحماسة والروح المعنوية العالية جعلتهما يشعرون بالكبرياء، وبشيء من نشوة النصر الذي ظل أحمد سعيد يبشرهم به.

الاشتباكات التي وقعت بين جنود جيش التحرير والقوات الإسرائيلية كانت محدودة، والأهم منها ما وقع على دوار خان يونس، على الطريق العام الذي يربط شمال القطاع بجنوبه، وعلى تلة المنطار، وهي تقع شرقي مدينة غزة وتشرف على محور ناحال عوز الذي يقع شرق خط الهدنة، وموقع البوليس الحربي ويقع شمالي مدينة غزة، وبالقرب من وادي غزة.

في كل من هذه المواقع الثلاثة، كان ثمة شاهد عيان، من أقربائي، روى ما وقع. على دوار خان يونس كانت القوة الفلسطينية محدودة العدد والعدة، وكان أفرادها يتحصنون في خنادق قاموا بحفرها بمساعدة الشباب قبل الحرب. على الطريق العام تقدمت دبابات إسرائيلية كانت تحمل العلم الجزائري، في محاولة للتمويه. كاد الجنود يقعون في الفخ، ويخرجون من خنادقهم لاستقبالها، غير أن أحدهم سمع أحد الجنود وهو يتحدث باللغة العبرية عبر اللاسلكي، ففتحوا عليها نيران رشاشاتهم الخفيفة. تراجعت الدبابات مسافة ليست بعيدة ثم عادت تفتح نيران مدافعها على من كانوا في الموقع، الأمر الذي أدى إلى اشتباك محدود اضطرت معه القوة الفلسطينية إلى الانسحاب وإخلاء الموقع.

في تلة المنطار، كان الجيش الفلسطيني يملك مدفع هاون؛ وبعد أن أطلق بضع قذائف على هدف غير مرئي، ورداً على قذائف أطلقها الجيش الإسرائيلي، انتهت المعركة من دون أن يحدث اشتباك مباشر، لأن القوة الإسرائيلية كانت محمولة، ومن دون أن تتوفر للمدافعين الإمكانات التسليحية القادرة على التعامل معها.

الأمر لم يختلف على محور البوليس الحربي، إذ تقدمت القوات الإسرائيلية بالدبابات، ولم يتسنّ لجنود جيش التحرير التعامل معها.

نلاحظ في مواقع الاشتباك كلها أن جيش التحرير الفلسطيني لم يكن يملك أسلحة مضادة للدروع. وبالمحصلة فإن قطاع غزة سقط عسكرياً من دون أي مقاومة حقيقية تُذكر، أو اشتباكات ذات تأثير في القوات الإسرائيلية التي تقدمت لاحتلاله، بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بضرب مواقع الجيش المصري، وتقدمت بسرعة في صحراء سيناء.

تفصيلات صغيرة

لي صديق يكبرني بعام واحد، كان قد استلم بندقية نصف آلية، مع مجموعة من شباب المنطقة. موقع الخدمة كان يفترض أنه غربي مدينة غزة، حيث يقع مركز التموين التابع لوكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، وعلى مسافة لا تتجاوز ١٠٠ متر عن شاطئ البحر.

يقول أنه ومجموعته ذهبوا في اليوم الأول للحرب، إلى مدرسة فلسطين، وسط مدينة غزة، كي يحصلوا على ذخيرة، ويضيف أنهم قابلوا عميداً مصرياً يلبس جلابية بيضاء ويجلس خلف طاولة، فأخذوا حاجتهم منه، ثم عادوا إلى حيث يفترض أن يكون موقع خدمتهم.

ويتابع: وصلنا إلى المكان فإذا بأحدهم يلفت انتباهنا إلى وجود دبابات إسرائيلية تتحرك في الشارع العام، فتفرقنا وعدنا إلى منازلنا. وفي اليوم التالي غادروا عبر المراكب نحو مصر. من الواضح أن كثيراً من الضباط والجنود، وحتى بعض المدنيين، هربوا من القطاع عبر البحر، فقد كانت سيناء مسرح حرب، وثمة مخاطر من اجتياز مسافة طويلة في الصحراء، فضلاً عن أن البحر كان أكثر أمناً، إذ خلت السواحل من وجود قطع حربية إسرائيلية، ولم يكن من داعٍ عسكري لوجودها على شواطئ القطاع.

شهادة شخصية

كنت في السابعة عشرة من العمر حين وقعت الحرب، وأسكن في مخيم جباليا للاجئين. ومع أنني أنهيت الصف الحادي عشر، ومن المواظبين على الدراسة، إلا أنني مثل أبناء جبلي، لم نكن نملك من المعارف عن الحياة والعالم الخارجي، عالم ما بعد غزة، أي شيء. فعلى سبيل المثال، لم نكن نعرف عن وجود شيء اسمه الكهرباء، أو مثلاً أن الإنسان في بلده يملك جواز سفر. إمكانات التواصل حتى مع المجتمع المحلي كانت محدودة بالاتصال الشخصي المباشر، أو من خلال ما تتناقله الألسن، من دون أن يكون لذلك أي أثر في تنمية المعارف.

كان يوم الاثنين - حين وقعت الحرب - يوماً عادياً، باستثناء أن المناخ العام متوتر وطافح بالحماسة بعد أن سمعنا ما تتناقله الألسن عن وقوع الحرب من دون أن نشعر بها. في اليوم التالي أخذتني الحمية مع صديق من الجيران، للذهاب إلى حي الزيتون في مدينة غزة، للاطمئنان عن عمي الذي يسكن مع عائلته هناك. لم نكن نملك أي وسيلة للوصول، أو أي إمكان مادي، فذهبنا عبر البساتين التي نعرفها جيداً كوننا نقضي معظم أوقاتنا خارج الدراسة في شوارعها وبين أحضانها.

المسافة التي كان علينا بلوغها لا تزيد على خمسة كيلومترات، لكنها استغرقت يومين كاملين من دون أن نصل إلى هدفنا. كانت الشوارع والبساتين خالية من أي حركة للبشر إلا ما ندر، وعندما وصلنا إلى منطقة المحطة، وهي تقع في منتصف المسافة تقريباً، بدأنا نسمع أصوات إطلاق نار متفرقة. سألنا بعض سكان المنطقة، فحذرونا من أن اليهود وصلوا إلى حيي الشجاعية والزيتون. كان صعباً علينا التقدم أو العودة بسبب أصوات الرصاص. حلّ الظلام، ونحن في أحد بساتين البرتقال، وكانت أصوات إطلاق النار تقترب كأن الجيش الإسرائيلي شرع يمشط المنطقة، لكننا اكتشفنا أن هذا كان بهدف ملاحقة وتخويف الجنود الفارين الذين يختبئ بعضهم في بساتين المنطقة. مكثنا الليلة بطولها عند ناطور البستان الذي خبأنا في غرفة مضخة المياه، وفي الصباح قررنا العودة.

في الطريق إلى جباليا، أخذنا نسمع أصوات انفجارات ضخمة تصدر عن قصف مدفعي للمخيم. قابلنا شخصاً قادمًا من أطراف المخيم، وقال حين سألناه إن المخيم كله تم تدميره. لم يكن أمامنا خيار سوى أن نقرر العودة إلى المخيم، فالموت مع الجماعة رحمة، ولأن الأفضل أن تربط مصيرنا بمصير عائلاتنا وأهلنا.

تسللنا بين البساتين، ووصلنا إلى مدارس الأونروا التي تقع بيوتنا إلى جوارها. انتهت الرحلة، لنجد أنفسنا في شوارع المخيم، وفوجئنا حين رأينا أن البيوت على حالها، إذ لم نر بيتاً واحداً مدمراً. وفي وقت لاحق عرفنا أن عدداً قليلاً من البيوت أصابته القذائف، فهدف القصف كان إدخال الرعب

في نفوس الناس تمهيداً لدخول الجيش الإسرائيلي.

ظن أهل البيت المجتمعون قلقاً بشأني، أنني استشهدت، أو أن اليهود قبضوا عليّ، وكانت الفرحة لا توصف، وخصوصاً أن أخي الأكبر عاد هو الآخر، وكان جندياً متطوعاً في موقع دؤار خان يونس الذي خاض الاشتباك.

في يوم الجمعة، أي اليوم الخامس للحرب، انتشرت الآليات العسكرية الإسرائيلية في المخيم، وراحت عبر مكبرات الصوت، تطلب من الرجال من عمر ١٦ عاماً وما فوق، التجمع فيما يُعرف بـ "جورة أبو راشد" وسط المخيم. لم يتوقف إطلاق الرصاص في الهواء، وبعد أن انتهت عملية التجميع، خاطب أحد الجنود عبر مكبرات الصوت، الجمع الغفير، مطالباً الفدائيين والجنود بتسليم أنفسهم. النداء كان يطلب من الناس أيضاً الاعتراف على مَنْ لا يسلمون أنفسهم من المطلوبين، لكن أحداً لم يسلم نفسه، ولم يعترف على آخر.

في تلك الأثناء كانت دوريات راجلة للجيش الإسرائيلي تقوم بتفتيش المنازل بيتاً بيتاً بحثاً عن السلاح، وعن الذين لم يستجيبوا لنداء مكبرات الصوت. وبعد ساعات طلب المكلف بنقل الأوامر عبر مكبرات الصوت من الجميع العودة إلى بيوتهم، وعدم الخروج منها، معلناً فرض حظر التجول. كانت حال المناطق الأخرى مشابهة لحال مخيم جباليا، إذ طُلب من الرجال التجمع في أماكن معينة لسماع الأوامر نفسها.

استمر نظام حظر التجول لأيام يتخللها ساعات محدودة للحركة، كجلب بعض الحاجات من السوق، أو تمكين النساء من ملء جرارهن من صنابير المياه التي أنشأتها الوكالة، وكانت عامة، مثلما هي الحال بالنسبة إلى المراحيض التي كانت هي الأخرى عامة، إذ كان يخصص في كل حارة واحد للرجال، وآخر للنساء.

في تلك الأثناء، أقام الحاكم العسكري الإسرائيلي في مقر الحاكم العسكري العام في قطاع غزة، والذي هو اليوم مقر المجلس التشريعي الفلسطيني.

هكذا انتهى الأمر باحتلال قطاع غزة، لتبدأ مرحلة جديدة من المقاومة الشعبية التي جعلت الجيش الإسرائيلي يكرر فرض نظام حظر التجول مرات ومرات. وبطبيعة الحال لم تكن أيام حظر التجول من دون إغارات للدوريات من الجيش على بعض البيوت، واعتقال مَنْ تتوفر لديها معلومات عن نشاطاتهم، وفي كثير من المرات كان الجنود يعيثون بأثاث البيوت، ويتعاملون بفظاظة مع النساء والأطفال. ■